العُلُومُ الإنْسَانِيَّة وأَزْمَةُ المَنْهَج فِيْ مَعْرِفَةِ الإنْسَانِ

فادي ناصر*

«إنَّنَا نُفَسّرُ الطَّبِيْعَة ولكنَّنَا نَفْهَمُ الإنْسَان»

(دلتاي)

المُقدّمة

هُنَاكَ اخْتِلافٌ واضِحٌ بيـن العُلُوم الإنْسَـانيَّةِ في الغَـرْبِ وغَيْـره مـن المُجْتَمَعـات. فَواقِعُ العُلُـوم الإنْسَـانيَّة في مُجْتَمَعَاتِنـا يَخْتلفُ عمَّا هـو عَليْـهِ في المُجْتَمَعـاتِ الغَرْبيَّة؛ لِناحِيَـةِ مَعْرِفَـة الأهمِّيَّـة، وفَهْـم الـدَّوْر، وإدراك مَـدَى تَأْثِيْـر تلـك العُلُـوم في بِنَـاءِ الحَيَـاةِ الإنسـانيَّةِ وصِنَاعَتِها. فأسْـهَمَتْ العُلُـومُ الإنْسَـانيَّةُ في الغَـرْبِ في تَحْقِيْـقِ ثَـوْرَةٍ فِعْلِيَّـةٍ في العَدِيْـدِ مـن المَجَـالاتِ؛ الاقْتِصَاديَّـة، والمُجْتَمَعيَّـة، والنَّفسـيَّة، والتَّاريخيَّـة والجُغْرافيَّـة، وغيرهـا، حيـث واكبـت العُلُـومُ الإنْسَـانيَّة تَشَـكُّلَ المُجْتَمَـع الغَرْبـيّ بِـكُلِّ أبْعَـادِهِ، ولـمْ تكُـنْ مُجَـرَّد علـوم نَظَرِيَّـةٍ؛ بَـل دخَلَـتْ في صُلْـبِ البِنَـاءِ الإنسَـانِيِّ الغَرْبـيِّ فـي مُخْتَلـفِ المُسْـتَويات؛ العَقْلِيَّـةِ، والنَّفْسِـيَّةِ، والمُجْتَمَعيَّـةِ، والاقتِصَاديَّـةِ، والسِّياسـيَّةِ، والحُقُوقيَّـةِ،

* أُستاذ الفلسفة وعلوم القرآن في كُلِّيَّة الأديان والعُلُوم الإنسانِيَّة في جامعة المعارف - لبنان.

والتَّاريخيَّـة، لِمَـا لهـا مِـنْ تأثيـرٍ مُباشَـرٍ في فَهْـمِ الواقِـعِ البَشَـرِيِّ، وبنـاءِ مُسْـتقبَلِه على نَحْوٍ أفْضَـل.

أمَّـا فـي مُجْتَمَعاتِنـا فلـمْ ينشأْ البحـثُ فـي الظَّواهِـرِ الإنسَـانيَّةِ بالآليَّـاتِ والوسـائلِ العِلْمِيّـة مِثْلَمَـا حَصَـلَ فـي التَّاريـخ الغَرْبـيّ بفِعْـلِ عَمَليَّـةٍ تاريخيَّـةٍ ذاتيَّـة، مَوْصُولـةٍ بصَيْـرُورَةٍ في النَّظَـرِ إلى تلـك الظَّوَاهِـر؛ ضِمْـنَ سِـياقِ تطـوُّرِ الأفـكارِ والعُلُـوم وتطـوُّر المُجْتَمَعـات، بقـدرِ ما نَشَـأَ في سِيَاقِ عمليَّـةِ تقليـدٍ أفْرَزَتْهـا مُتَغَيِّـرات خارجيَّـة وافـدة[1]؛ بمعنـى آخـر، لـم تنشأ العُلُـوم الإنسـانيَّة فـي مُجْتَمَعَاتِنـا ضِمْـنَ مَسَـارٍ معرفـيٍّ، وثقافـيٍّ، ومُجْتَمَعِـيٍّ، وسياسـيٍّ، وتاريخـيٍّ نابـعٍ مـن الاحْتِياجَـاتِ الإنسـانيَّةِ والمُجْتَمَعِيَّـةِ كمـا حدث في الغـرب؛ بـل نشـأت العُلُـومُ الإنسـانيَّة عندنـا في إطـارِ تأثُّرهـا بالغـربِ بفعْـلِ التَّغريـبِ المعرفـيِّ والثَّقافـيِّ، والَّتـي فَرَضَتْهـا ريـاحُ التَّغريـبِ القَوِيَّـة الَّتـي اجتاحـتْ العالم في نهايـةِ القـرنِ التَّاسِـع عشـر ومـا بعـده بشـكلٍ خـاصٍّ، وتمكَّنـت مِـنْ فَـرْضِ هيمنتهـا الثَّقافِيَّـة الفكْرِيَّـة على العالـم الإنسـانيِّ بمجملـه تقريبًـا. والسُّـؤالُ الَّـذِي يطـرحُ أنَّـه في ظِـلِّ تلـك التَّبَعِيَّـة لِلْعُلُـوم الإنسَـانيَّةِ الغربيَّـةِ هـل تُعَـدُّ تلـك العلوم قـدرًا محتومًـا لا نقـاش فيـه؟ فـلا فائـدة مِـنْ إعَـادَةِ النَّظَـر فـي أُسُـسِ تلـك العلـوم الغربيَّـة ومَناهِجِهـا المُتَّبَعَـة، وآثارهـا الاجتماعيَّـة والإنسـانيَّة ونتائجهمـا؟ إنَّ واقـعَ الدِّراسـات والأبحـاث المعاصـرة حـول العلـوم الإنسـانيَّة اليـوم فـي الغـرب يُخَالِـفُ تلـك النَّظْـرة، ولا يتَّفِـقُ مَعَهـا علـى الإطْـلَاقِ. فقـد انتشـرت العديـد مـن الكُتـبِ والأبحـاثِ الَّتِـي تَنْتَقِـدُ العُلُـوم الإنسـانيَّة، حتَّـى بدأنـا نسـمعُ في الأوسَـاطِ العِلْميَّـة، وعلـى نَحْـوٍ مُتَكَـرّر بمُصْطلَـح: «أزمـة العُلُـوم الإنسـانيَّة» للدَّلالـةِ على المَـأْزِقِ الكَبِيـرِ الَّـذي وصَلَـتْ إليـه تلـك العلـوم اليـوم. وفـي هذا البحـث، سـوف نحـاولُ مقاربـة تلـك الأزمـة مـن زاويـةِ المنهـجِ الَّـذِي حكـم بنـاء تلـك العلـوم وصيرورتهـا منـذ التَّأسِـيس إلى اليـوم؛ لنجيـب عـن السُّـؤال الآتـي: هـل المَنْهَـجُ المُتَّبَـعُ فـي العُلُـومِ الإنسـانيَّةِ الغربيَّـة يُحقِّـقُ الأهـداف الإنسـانيَّة الواقعيَّـة فـي الحيـاةِ، والَّتِـي تَنْسَـجمُ مـعَ تكوينِـه الفطـريّ، وهندسـته الوُجُودِيَّـة أم لا؟

1- كمـال عبـد اللَّطيـف، تأصيـل العلـوم الإنسـانيَّة فـي الفكـر العربـيِّ المعاصـر؛ الشُّـروط المعرفيَّـة والتَّاريخيَّـة، مجلَّـة فكـر ونقـد، العـدد18، المغـرب، 1999م، نقـلًا عـن أحمـد خليفـة وآخـرون، إشـكاليَّة العُلُـوم الاجتماعيَّـة فـي الوطـنِ العربـيِّ، دار التَّنويـر، القاهـرة، 1984م. ومحمـد عـزت حجـازي وآخـرون، نحـو علـم اجتمـاع عربـيّ، مركـز دراسـات الوحـدة العربيَّـة، بيـروت، 1986م.

ماهِيَّة العُلُوم الإنْسَانِيَّة

يُطْلَقُ مُصْطَلَحُ العُلُوم الإنسانِيَّة على العُلُوم الَّتِي تبحثُ في أحْوالِ الإنسَانِ وسُلُوكيّاته. ويُقصدُ بالعُلُوم الإنسانِيَّة «تلك الَّتِي تصبُّ اهتمامها على دراسةِ الإنسانِ من جوانِبِه المُخْتلفة»[1]. فَهو علمٌ يتَّخذُ من الإنسان موضوعًا للدِّراسة؛ بهدف كشف أبعاده المختلفة؛ النّفسيَّة، والعقليَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وغيرها... والَّتِي بمجموعها تُشكِّل ما يُعْرفُ باسم «الظَّاهرة الإنسانِيَّة» الَّتِي غدت حقلًا للفهمِ والبحث والتَّفسير.

فالإنسان منذ نشأته الأولى، وتواجده البدائيّ في هذا العالم، يُحَاولُ، على الدَّوام، فَهْم الظَّواهر الطَّبِيعِيَّة والإنسانِيَّة من حوله. تلك الدَّافعيَّة كانت مُحرِّكًا لاستكشافِ العالم الخارجيّ بداية؛ ما ولَّد ما عُرِفَ باسْم العلوم الطَّبِيعِيَّة، ولكن بما أنَّ المُسْتكْشفَ هو الإنسانُ نفسه كان لا بُدَّ مِنْ فَهْمِ تلك الظَّاهرة الوُجُودِيَّة، ذات الأبعاد المختلفة العميقة والدَّقيقة جدًّا. فبدأ التَّفكيرُ في خفايا صناعةِ النَّفسِ الإنسانِيَّة، وآليّات تفكير الإنسان، وقواعد المعرفة لديه، وكيفيَّة تعامُلِه مع الآخرين أفرادًا ومجتمعات. ولكن يبقى السُّؤال الأساس والمركزيّ: ما حقيقةُ الإنسان؟ ومن أجل الإجابة عن هذا السُّؤال لا بُدَّ مِنْ إخضاع الظَّاهرَةِ البشريَّة للدّراسَةِ والتَّحليلِ من خلالِ استخدام نُظُم ومَنَاهِج مُتعدِّدة من البحث؛ بسببِ صُعُوبة دراسة تلك الظَّاهرة والقدرة على فهمها.

تُعدُّ العُلُومُ الإنسانِيَّة فرعًا من فروعِ المعرفةِ المُتخصّصة بدراسةِ البشر وثقافتهم بطريقةٍ علميَّةٍ من خلالِ استخدام المنَاهج المختلفة؛ مثل: التَّحليليَّة، والتَّفسيريَّة، والاستنباطيَّة، والاستقرائيَّة، والدِّينيَّة من أجل الإجابة عن التّسَاؤلات المرتبطة بحقيقةِ الإنسانِ ووظيفتِه في هذا العالم. لذلك، «تُوصف العُلُوم الإنسانِيَّة بأنّها دراسةٌ تحليليَّةٌ لخبراتِ البشرِ وأنشطَتِهِم، ومعرفة آليَّات معالجتهم للتَّجربة البشريَّة وتوثيقها»[2].

لا يخفى على أحد أنَّ العلم قوَّة رئيسة في أيِّ تحوُّل وتكامُلٍ فرديّ واجتماعيّ، وأنّه أساس أيّ سلطة وسيطرة وتحكُّم بالعالم الخارجيِّ التّكوينيِّ والدَّاخليِّ الإنسانيِّ. ويمكنُ أنْ نقسّم العلوم اليوم إلى ثلاثةِ أقسَام: العلوم الطَّبِيعِيَّة، والعلوم الإنسانِيَّة،

1- ناهد عرفة، مناهج البحث العلميّ، الجمعيَّة الفلسفيَّة المصريَّة، مصر ،1426هـ ص141.

2- What are the humanities?, www.shc.stanford.edu, Retrieved 26-06-2020.

والعلـوم الدِّينيَّـة. العلـوم الطَّبيعِيَّـة موضوعهـا المـادَّة، والعلـوم الإنسـانِيَّة موضوعهـا الإنسـان، والعلـوم الإلهيّـة موضوعهـا الإلـه. وبمـا أنَّ الإنسـان كائـنٌ عاقـلٌ ومـدركٌ، فهـو فـي حالـةِ تفاعُـلٍ فكـريٍّ دائـم مـع ذاتِـهِ، ومـع العالـم المحيـطِ بـه، ومـع فكـرة خالقـه وموجـده، وهدفـه فـي هـذا العالَـم، والمصيـر الَّـذي سـيؤول إليـه، والطُّـرُق الموصِلـة إلـى ذلـك المصيـر الَّـذي يفتـرضُ أن تكـون منسـجمة مـع تكوينـه الذاتـيِّ وهندسـته الوجوديَّة.

في هـذا البحث، لـن نتحدَّث عـن العلوم الطَّبيعِيَّـة والدينيَّـة؛ بـل سـوف نقـف قليلًا عنـد العلـوم الإنسـانِيَّة بغـضِّ النَّظَـر عـن رأينـا فـي مـا وصلـت إليـه، أو مـا يمكـن أن تصـلَ إليـه مـن خـلال المنهجيَّـة المُتَّبعـة حاليًـا فـي المقاربـات والتَّفسـيرات العِلْمِيَّـة الَّتـي تهـدفُ إلـى فهـم الإنسـان والإحاطـةِ بمختلـفِ حيثيَّاتِـه، إمَّـا بهـدف تسـخيره والسَّـيطرة عليـه كمـا هـوَ معمـولٌ بـه فـي بعـض المـدارس الإنسانِيَّة اليـومَ فـي الغـرب، أو بهـدف توجيهِـه علـى نحـوٍ أفضـل نحـو أهدافـه الحقيقيَّـة والواقعيَّـة، والَّتـي تنسـجم مـع خلقتـه ونشـأته الطَّبيعِيَّـة كمـا هـو مُتعـارف عنـد بعـض المـدارس الدينيَّـة. فالعلـم سـلاحٌ لا بُـدَّ منـه فـي علميَّـة الفهـم والتحكُّـم بـأيِّ ظاهـرةٍ وجوديّـة. وإذا عدنـا إلـى الإنسـان وصنَّفنـاه مـن ضمـن الظَّواهـرِ الوجوديَّـة والتَّكوينيَّـة فـي هـذا العالـم، فـلا بُـدَّ إذن مِـنْ فهـم تلـك الظَّاهـرة؛ كـي يتسـنَّى لنـا التَّحكُّـم بهـا وتوجيههـا بمـا يراعـي مصالحهـا وأهدافهـا المنسـجمة مـع صناعتهـا وخلقتهـا الأساسـيّة.

الإنسـان بمـا أنـه كائـن واع ولـه حيثيَّـة ذاتيَّـة وشـخصيَّة تتحكَّـم بهـا الإرادة والاختيار مـع مـا يسـتتبعه مـن تغيّـر وتحـول دائـم فـي خياراتـه وسـلوكيَّاته، فهـذا ـ بطبيعـة الحـال ـ سـوف ينعكـس مباشـرةً علـى صيرورتـه العقليّـة والنَّفسـيَّة والاجتماعيَّة، ومـا سـوف تنتجـه تلـك الصَّيـرورة مـن علـوم مُتَّصلـةٍ ومرتبطـةٍ بهـا أشـدّ الارتبـاط. فالاجتمـاع الإنسـانيّ سـوف يولـد بيئـة باحثـة عـن آليّـةِ حكـم ونظـام سياسـيّ واقتصـاديّ، وتفاهـم، أو تصـارع ثقافـيّ، واتِّجاهـات نفسـيَّة مُتَزَاحِمـة بفعـل التمـاس المباشـر مـع الآخـر، وطريقـة تفكيـر عقلـيّ مُتشـعّبة الأُطُـر، ومُتعـدِّدة الأصـول والقواعـد لناحيـة فهـم الـذَّات والعالـم، ونظامًـا تربويًّـا لـه آثـار مباشـرة علـى مسـتوى تنشـئة الفـرد، وقـراءة للحاضـر بتوزيعـه الجغرافـيّ، أو الماضـي بآثـاره المُتبقّيـة، وأسـلوب تخاطـب مـن خـلال الألسـن المختلفـة بلغاتِهـا المُتعـدِّدة، كل تلـك الأمـور وغيرهـا تُشـكِّل بمجموعهـا نظامًـا وعلمًـا إنسـانيًّا مُترابطًـا يـدور الإنسـان فـي فلكـه، لا بُـدَّ لـه مـن أن يتعلَّـم قواعـده وأنظمتـه؛ ليتمكَّـن مـن إدارة شـؤون حياتـه علـى مختلـف المسـتويات: العقليَّـة، والنَّفسـيَّة، والاجتماعيَّـة، لتكـون تلـك

الإدارة مقدِّمة لتنظيم شؤون الكائنِ الإنسانيِّ بعد فهمه وتحليل محتواه وأبعاده؛ لينطلق بعد ذلك للتَّحكُّم بالمحيط الخارجيّ والعالم الطبيعيّ المادّيّ.

فهناك تلازم دائم بين العلم والثَّقافة والبناء الحضاريّ للمجتمعات الإنسانِيَّة، فالحركة العِلْمِيَّة إذا كانت قد بدأت بالفيزياء، وكان برنامجها الأساسيّ السَّيْطرة على الطَّبيعة، فإنَّ أساس العلوم هو السَّيْطرة على الإنسان نفسه، وإلَّا فكيف نخضع الطَّبيعة لسيطرة الإنسان دون أن نخضع الإنسان وطبيعته قبلها. فالتَّحكُّم بالطَّبيعة ليس مُتاحًا من دون التَّحكُّم بالإنسان، وتلك هي وظيفة العلوم الإنسانِيَّة. وعليه، فإنَّ «مَهَمَّة العلوم الإنسانِيَّة هي دراسة كلّ نشاط إنسانيٍّ في كلّ مجال يزاولهُ الفرد، أو الجماعة في الفكر والعمل، دراسة إخباريَّة؛ أي تهدفُ إلى الوصفِ والتَّفسير، ومِنْ ثَمَّ التَّنَبُّؤ والتَّحكُّم، تمامًا كما تهدفُ العلوم الطَّبِيعِيَّة. ومع هذا فكما قيل بحقّ: لا ريبَ أنّها تختلفُ عن العلوم الطَّبِيعِيَّة؛ لأنَّ موضوعَها العام هو؛ الإنسان في المجتمع إزاء العالم»[1].

تعقيد الظَّاهرة الإنسانِيَّة

لم تكن طريق العلوم الإنسانِيَّة مُمهّدة على نَحْوٍ واضِحٍ ومُتسلسل وفق قوانين ونَظَرِيَّات مُحدّدة كما هو الحال في العلوم الطَّبِيعِيَّة، حيث تخلَّل مسيرة العلوم الإنسانِيَّة الكثير من العقباتِ والإشكاليّات والأزمات سوف نشير إلى بعضها في هذه الدراسة. يمكن أن نختصرَ التَّحدِّيات الَّتي واجهتها العلوم الإنسانِيَّة بعاملين أساسيّين:

الأول: يعود إلى موضوع العلم نفسه؛ أي «الإنسان»، حيث نلاحظ وجود صفة مُهمَّة وأساسيَّة من صفات تلك الظَّاهرة وهو «تعقيدها» ؛ أي صعوبتها البالغة على مستوى الفهم والتَّفسير والتّجربة.

والآخر: يعود إلى «الباحث» نفسه في العلوم الإنسانِيَّة؛ بسبب تداخُل ذاتيّته وأيديولوجيّته وتربيته وبيئته أحيانًا مع الحكم والاستنتاج العام الَّذِي يمكن أن يتَّخذه في أيّ من مُتعلّقات الظَّاهرة الإنسانِيَّة[2].

1- يمنى الخولي، مشكلة العلوم الإنسانِيَّة تقنينها وإمكانيّة حلّها، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، 2012م، ص71.

2- صلاح قانصوه، الموضوعيَّة في العلوم الإنسانِيَّة، دار التَّنوير، القاهرة، 2007م، ص51.

لا شك في أنَّ موضوع البحث في العلومِ الإنسانِيَّة من أعقد الموضوعات وأصعبها على الإطلاق؛ بسبب الخصائص الذاتيَّة الَّتي تتفرّد بها تلك الظَّاهرة: من الحرّيَّة، والوعي، والشَّخصانيَّة، والتأثُّر بالعوامل التَّربويَّة والبيئيّة، وغيرها،... فضلًا عن سرعة المُتغيّر الإنسانيّ لارتباطِه الدَّائم بالحراكِ الفكريِّ والعقليّ، والتَّفاعُل النَّفسيّ مع الأحداث والمُجريَات المحيطة، والمشاعر والأحاسيس القلبيَّة غير المُستقرَّة. كلّ تلك الأمور وربَّما يُمكننا إحصاء المزيد من تلك الخصائص الإنسانِيَّة المُتبدّلة والَّتِي تُشَكِّلُ بمجموعِها هُويَّة الكائن الإنسانيّ الَّذِي يسعى على الدَّوام إلى فهم نفسِه المُتحرِّكة فهمًا دقيقًا، ولفهم العالم الخارجيّ الطَّبيعيّ من حوله أيضًا من أجل تسخيره بما يتلاءمُ مع أهدافِه واحتياجاتِه الحياتيَّة، وتطلّعاتِه المستقبليَّة لناحية الرَّاحة، والرَّفاهية، والتَّكامل المادّيّ، كلّ تلك الأمور أسهمت في صعوبة العلوم الإنسانِيَّة.

تلك الخصائص الَّتِي تتفرَّد بها الظَّاهرة الإنسانِيَّة لا يمكنُ أنْ نجدَها في المادَّة الَّتِي تُشكِّل موضوع العلوم الطَّبِيعِيَّة بشكلٍ عام؛ لِكَونِ المادَّة خالية من الوعي والإرادة، وتسير وفق قانون مُحدّد وصارم، ولا تتأثّر بالمؤثّرات الخارجيَّة، مثل: الثَّقافة، والأيديولوجيا، والعواطف، وغيرها. ومِنْ ثَمَّ، يتَّصف موضوع العلوم الطَّبِيعِيَّة بالحياديَّة، والاستقلاليَّة عن أيِّ نشاطٍ إنسانيٍّ، وفكريٍّ، وروحيٍّ، وحضاريٍّ.

ولذلك، نلاحظُ أنَّ درجةَ تقدُّم العلوم الإنسانِيَّة إذا ما قُورِنَت بالعلوم الطَّبِيعِيَّة هي أقلّ؛ لأنَّ موضوعَها أعقد من موضوعِ العلوم الطَّبِيعِيَّة، ولاستحالة تحرُّرها من المؤثِّراتِ الخارجيَّة الَّتِي يمكن أن تكون طارئة على العلم من خارجه. وعليه، «تدور معظم الصّعاب الخاصَّة بموضوع العلوم الإنسانِيَّة وهوَ الإنسان والمجتمع حول القضيَّة الأساسيَّة القائلة بتفرّده، وما يتَّصلُ بذلك التَّفرّد من تعقيد، وعفويَّة، وحرّيّة إرادة، وجدَّة، وسرعة تغيّر، وغيرها؛ ما يفضي إلى تعذُّرِ استخلاص التَّعميمات من تقلُّب سلوكه، والتَّنبُّؤ به، وإجراء التَّجارب عليه، وخضوعه للقياس»[1].

أمَّا الصُّعوبةُ النَّاشئة من الباحثِ فمردّها إلى تأثُّرِه بالعوامِلِ الخارجيَّة الَّتِي يمكنُ أنْ تحول بينه وبين النَّتائج الصَّحيحة، ويمكننا «أن نوجزَ تلك الصِّعاب في دوائر، أو مستويات ثلاثة رئيسة، هي: الذّاتيَّة، والقيمة، والأيديولوجيَّة. ففي الذَّاتيَّةِ يتقوّم

1- صلاح قانصوه، الموضوعيَّة في العلوم الإنسانِيَّة، دار التَّنوير، القاهرة، 2007م، ص 52.

موقف الباحث من موضوع دراسته بوصْفه فردًا وشخصًا مُعيّنًا؛ بينما يتحدَّدُ موقفه في القيمة، (أو التَّقديم) بوصْفه ملتزمًا بمعايير جماعته ومجتمعه. على حين يتعيَّن موقفه في الأيديولوجيَّة بوصْفه مُتوحّدًا بجماعته مُتقمّصًا لمُجتمعه»[1].

هذان العاملان مجتمعين كانا أحد الأسباب الرَّئيسة الَّتي أدَّت إلى ما عُرِفَ لاحقًا بأزمة العلوم الإنسانيَّة، والَّتي نَتَجَ منها ـ بطبيعة الحال ـ أزمات عدَّة، أهمّها:

1. مشكلة تفسير الظَّواهر الإنسانيَّة وفهمها: والمرادُ من التَّفسير الَّذي يعني الإحاطة بالظَّاهرة والتَّمكّن منها، حيث نرى اختلافًا واسعًا ومُتناقضًا أحيانًا في تفسير الموضوعات الإنسانيَّة المُتنوّعة وفهمها.
2. مشكلة التّقنين الواضح والمنطقيّ لتلك الظَّواهر الإنسانيَّة: ومِنْ ثَمَّ، عدم تحوُّلها إلى نظريّةٍ علميَّةٍ لكون «النَّظريَّة العِلْميَّة ينبغي لها أنْ تُشكّل نسقًا مُحدّدًا يقومُ على مجموعةٍ من المفاهيم والقَضَايا الَّتي تَرْبطُ بين المفاهيم؛ بحيث تتَّخذُ النَّظريَّة دورًا اسْتِنباطيًّا، وشَكلًا يعتمدُ طائفةً من التَّعريفات والمصادرات المفضية إلى فروض جزئيَّةٍ حسب قواعد منطقيّة تفضي إلى تعميمها، بشرط أن تكون التّعميمات النَّاتجة قابلة للاختبار التَّجريبيّ، أو التَّحقُّق الواقعيّ»[2]، وهذا ما لا نجده بشكلٍ جليٍّ وواضحٍ ومُتّفقٍ عليه في العُلُوم الإنسانيَّة.

كلّ تلك العوامل وغيرها جعلت الظَّاهرة الإنسانيَّة فريدة، وقد أطلق «تفرّد الظَّاهرة الإنسانيَّة» على موضوع العلوم الإنسانيَّة في دراسات عدَّة، ومن قبل كثير من الباحثين. وهاتان المشكلتان (صعوبة الفهم والتّفسير، وصعوبة التّقنين) تكشفان في الواقع عن مشكلةٍ أخرى أعمق وأكثر تأثيرًا في بطء التَّقدُّم في العلوم الإنسانيَّة وهي المُتعلّقة بالمنهج، أو المناهج المُتَّبعة في دراسة الظَّواهر الإنسانيَّة. ولكن قبل الحديث عن إشكاليَّة المنهج الصَّحيح في العُلُوم الإنسانيَّة علينا أن نجيب عن هذا التَّساؤل وهو؛ هل تعقيد الظَّاهرة الإنسانيَّة وتَغيرها المستمرّ؛ بسبب العوامل والأسباب الَّتي ذكرناها يلغي كونها ظاهرةً علميَّةً يمكنُ دراستها واستخلاص النَّتائج منها ؟

1- صلاح قانصوه، الموضوعيَّة في العلوم الإنسانيَّة، مصدر سابق، ص 58.

2- يمنى الخولي، مشكلة العلوم الإنسانيَّة تقنينها وإمكانيَّة حلّها، مصدر سابق، ص71

تعقيد الظَّاهرة العِلْمِيَّة لا يُنافي علميّتها

من المشاكِلِ الَّتِي واجهت العلوم الإنسانِيَّة أيضًا على مستوى التَّفسير العلميّ والتَّقدير المعرفيّ هو سعيها إلى تقليدِ العُلُوم الطَّبِيعِيَّةِ لناحية بناء قواعد ثابتة، وقوانين منطقيّة غير مُتغيّرة ظنًّا منها بأنّها سَرُّ قوَّة العلوم الفيزيائيَّة، والرياضيَّة، والأحياء، والكيمياء وتقدُّمها، مع أنّ تلك المُسلّمة ليست دقيقة، وليست صحيحة في عصرنا الحاضر. فلا الفيزياء بقيت على ثباتِها، ولا الرياضيَّات تمكّنت من فرضِ هيمنتها على المستوى المنهجيّ على بقيَّةِ العلوم والاختصاصات العِلْمِيَّة. ففيزياء نيوتن الكلاسيكيَّة والَّتِي واصلت تقدّمها وتطوّرها حتَّى نهاية القرن التَّاسع عشر وصلت إلى طريقٍ مسدودٍ عند ظهور ظواهر علميَّة جديدة أخلَّت بقوانينِ نيوتن بشكلٍ كبيرٍ، كالظواهر المجهريَّة مثلًا الَّتِي لا تدركها الحواس، والحركة الغازيَّة، وظواهر الديناميكا الحراريَّة، وغيرها. حتَّى وصل العلم إلى نتيجة أدرك فيها أنّ نظريَّة نيوتن بكلّ ما أحْرزتْهُ من نجاحِ طبق الخافقين، محض فرض تفسيريّ ناجح في زمانِهِ، إلى أن شهدَ مطلع القرنِ العشرين ثورةً علميَّةً جديدةً تمثَّلت في النَّظريَّة الكموميَّة والنَّظريَّة النسبيَّة الَّتِي أعلنها ألبرت أينشتين.

فعلم الفيزياء ليس علمًا ثابتًا كما كان يُظنّ أو يُشاع، فقد غيرت نظريَّة الكوانتوم الكموميَّة الَّتِي تبحث في إطارِ العالم الذّرَّة الصغيرة، ونظريَّة النِّسْبِيَّة الَّتِي تبحثُ في مُجْمَلِ الكون الفيزيائيِّ الكبير قوانين نيوتن الفيزيائيَّة إلى الأبد. كما أنَّ علمَ الرياضيَّات لم يكن القاعدة العِلْمِيَّة الَّتِي تتأسَّسُ عليه كلّ العلوم الطَّبِيعيَّة الأخرى، ولم تدخل في أساسيَّات بِنْيَتِها العِلْمِيَّة، ولم تعتمدْ في قواعدِها وأُسُسها على الاسْتدلالِ الرِّياضِيّ، مثل: علوم الطِّبّ، وعلوم الحياة والبيولوجيا، والجيولوجيا، والجغرافيا، وعلم الاقتصاد، وعلم السُّكَّان، وغيرها،... فهي علوم تجريبيَّة ولكن ليس بالضَّرورةِ أن تكون خاضعة لقواعِدِ الاستنباطِ الرِّيَاضِيّ. وعدم تأثُّر العلوم الأخرى وابتناؤها على المفهوم الرِّياضيّ الدَّقيق لا يلغي ـ بطبيعةِ الحال ـ علميّتها، ولا يؤثر في خصائصها الذَّاتيَّةَ المنطقيَّة.

بالعودة إلى «الدَّرسِ العميق الَّذِي تعلّمناه من ثورتيْ: الكموميَّة Quantum والنِّسْبِيَّة Relativity أنَّ كلَّ تقدُّم علميٍّ فقط نسبيّ، والنِّسْبويَّة Relativism تعني الحدود المؤقّتة للقِوَى المعرفيَّة للبحوث الإنسانِيَّة المُنصَبَّة على ذلك العالم الفيزيقيّ الَّذِي نحيا فيه. فتلك النِّسْبَويَّة تجعل كلّ تقدُّمٍ علميٍّ يحرزُه الإنسان، ومهما ثبت

نجاحه هو فقط أعلى نسبيًّا من المرحلةِ السَّابقة...معنى ذلك أنّ المرحلةَ التَّالية تحملُ معها إمكانيَّة التَّقدُّم بدرجةٍ أعلى، وهكذا دواليك إلى قيام السَّاعة، أو على الأقلّ إلى حين انتهاء الحضارة الإنسانِيَّة الرَّاشدة الَّتي أصبحت علميَّة»[1]. وهذا إنْ دَلَّ على شيءٍ فهو يدلُّ على أنَّ اتّصاف ظاهرة ما بأنّها علميَّة وتقدُّميَّة وثوريَّة ليس مشروطًا بحتميَّةِ ثباتِها وعدم تغيُّرها، أو تأسيسها على قواعد علم الرّياضيَّات. من هنا، يصبحُ الدُّخول إلى ميدانِ العُلُوم الإنسانِيَّة مشروعًا أُسْوةً ببقيَّةِ العلوم ولا ينبغي الحكم لذلك الحقل العلميّ بأحَكام لا تتَّصفُ بها أصلًا بقيَّة العلوم الأخرى؛ لأنَّه من غير المنطق والإنصاف أنْ نحكمَ على منهج العلوم الإنسانِيَّة بأنّه غير علميّ لمجرَّد أنّه ليس قائمًا على الاستدلالات الرِّياضيَّة، ولا علَى الحتميَّة والثَّبات الفيزيائيّ. فالمشكلةُ تكمن في تعوّد الفكر العلميّ وخاصَّة التّجريبيّ منه؛ على الاستدلالِ والمنطقِ القائم على قانونِ السَّبَبيَّة والحتميَّة، لدرجة أنَّ أيّ خروج عن ذلك الإطار المنهجيّ يُعَدُّ خرقًا لِبنودِ الفكرِ العلميِّ، وانحرافًا عن الاستقامَةِ الموضوعيَّة المُعْترف بها. وقد تأثَّر التَّصَوُّر البشريّ كثيرًا بذلك المنطق العلميِّ إلى درجة أنَّه تبنَّاه بِوصفِهِ منهجًا لا بديلَ له فأدخلَهُ في كثيرٍ من حِسَاباتِه الفكريَّةِ والعَمَليَّةِ. وبينما كان الصِّراعُ الفكريُّ على أشُدِّه بغية توكيد ذلك التَّقارُب بين العُلُوم الإنسانِيَّة بالمنهج التَّجريبيِّ بِوصْفِهِ مرجعًا علميًّا ثابتًا لاكتسابِ العُلُوم الإنسانِيَّة المزيد من الاستقامَةِ والدِّقَّةِ في الاستنتاج، حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد توصَّلَ العلماءُ في ميادين الفيزياء والعلوم الطَّبيعيَّة إلى نتائج مُذهلة ومُحيِّرة للغاية، أدخلت الفكر العلميّ كلّه في دوَّامةِ الشَّكِّ، وإعادة النَّظَر في قواعِدِه وقوانينِهِ الثَّابتَة[2]. فقد تبيَّن أنَّ المظاهِرَ الطَّبيعيَّة بشكلٍ عامٍّ، والفيزيائيَّة بشكلٍ خاصٍّ غير ثابتة؛ بل هي مُتغيّرة ومتحوِّلة على الدَّوام. في الوقت الَّذي كانت تسعى العلوم الإنسانِيَّة- بحسب اعتقاد بعضهم- إلى ضرورةِ التَّقرُّبِ من المنهج العلميِّ من أجلِ الوُصُولِ إلى الموضوعيَّةِ والدِّقَّة التَّجريبيَّة حتَّى تصبح العلوم الإنسانِيَّة في المستوى نفسه من العلوم الدَّقيقة الأخرى. وعليه، يمكن للعلومِ الإنسانِيَّة، أُسْوةً ببقيَّةِ العلوم، أنْ تعترفَ

1- يمنى الخولي، مشكلة العلوم الإنسانِيَّة تقنينها وإمكانيّة حلّها، مصدر سابق، ص29.

2- قلامين صباح، فلسفة العلوم الإنسانِيَّة من التَّفسير الآلي إلى نظريَّة التَّعقيد، مجلَّة مداد، العدد الرّابع، جامعة زيان عاشور، ص272، نقلًا عن أرنست زيبروسكي، مخاطر كوكبنا المضطرب، ص393.

بجدوائيَّـة منهجهـا المُتغيّـر والمُتحـرّك وغيـر الثَّابـت أيضًـا، وعـدم حاجتـه إلـى البحـث فـي نقـاطِ قـوَّة المناهـج العِلْمِيَّـة الطَّبيعِيَّـة مـن أجـلِ إثبـاتِ صحَّـة البُعْـدِ العلمـيّ للعلـوم الإنسـانِيَّة؛ مـا يجعلنـا نعتقـد بـأنَّ الظَّاهـرةَ الإنسـانِيَّةَ هـي ظاهـرة علميَّـة لكونهـا مُتغيِّـرة وليـس العكـس. والاكتشـافاتُ العِلْمِيَّـةُ الأخيـرة أكَّـدت تلـك الحقيقـة، وبيّنـت درجـة الصّحَّـة العِلْمِيَّـة الَّتِـي تَتَميَّـزُ بهـا الظَّاهِـرة الإنسـانِيَّة. وبعـد ذلـك التَّأسِـيس المفتاحـيّ، يمكننـا الذَّهـاب إلـى البحـثِ عـن تقنيَّـاتٍ أخـرى أكثـر تطـوُّرًا وواقعيَّـة مـن أجـلِ قيـاسِ الظَّاهـرة الإنسـانِيَّة، مـن خـلال اسـتخدام مناهـج علميَّـة مختلفـة وجديـدة وأكثـر تطـوُّرًا. فالصُّـورة «الجديـدة للعلـم التَّجْريبـيّ أثبتـت التَّجـارب، ولـو بصـورةٍ غيـر مباشـرة، أنَّ الظَّاهـرةَ الإنسـانِيَّةَ هـي أصـلًا ظاهـرة علميَّـة موضوعيَّـة يمكـنُ ضبطهـا ومعرفتهـا إذا مـا اسـتطعنا أنْ نوظِّـفَ الأدوات الجديـدة الَّتِـي أتـى بهـا هـذا الأنمـوذج التَّصـوُّريّ الجديـد القائـم علـى نظريَّـةِ الفوضـى chaos والتَّعقيـد complexite[1]».

مناهج العلوم الإنسانِيَّة

المنهـج بمـا يعنيـه مـن أسـلوب تفكيـر، وخطـوات علميَّـة مُنظّمـة ومترابطـة ؛ بهـدف معرفـة، أو فهـم، أو تفسـير، أو اسـتنباط، أو حتـى اسـتدلال علـى مسـألة، أو معالجـة إشـكاليَّة علميَّـة مـن أجْـلِ التَّوصُّـل إلـى نتائـج حاسـمة ونهائيَّـة، كان هـو أيضًـا إحـدى المشـكلات الَّتِـي عانـت منهـا العلـوم الإنسـانِيَّة منـذ تأسيسـها بِوصْفِهـا علمًـا مُسْـتقلًّا تقريبًـا مـع بدايـات القـرن التَّاسـع عشـر. فقـد تنوَّعـت وتعـدَّدت المناهـج المُتّبعـة فـي العلـوم الإنسـانِيَّة، وكثـرت إلـى الحـدِّ الَّذِي أوقع العلوم الإنسـانِيَّة فـي أزمـةِ تعـدُّد المناهـج المُتّبعـة فـي المعرفـة، وبلـغ ذلـك التَّنـوُّع درجـة التَّعـارض أحيانًـا فـي الاختصـاص العلمـيِّ الواحـد نفسـه، مثـل: اتِّخـاذ المنهـج التَّحليلـيّ النَّفسـيّ، والمنهـج التَّجريبـيّ، والقيـاس فـي علـم النَّفـس، إلـى أن ظهـرت دعـوات مؤخّـرًا تبحـثُ فـي فكـرة منهـج واحـد للعلـوم للإنسـانيَّة. وتلـك المشـكلة ـ بطبيعـة الحـال ـ ليسـت مـن خصائـص العلـوم الإنسـانِيَّة؛ بـل هـي حاضـرة أيضًـا فـي مختلـف العلـوم الأخـرى، ولكـن تبـرزُ بشـكلٍ لافـتٍ وقـويّ أكثـر فـي هـذا الحقـل والتَّخصُّـص العلمـيّ.

حـاول العديـدُ مـن العلمـاءِ والباحثيـن إيجـاد حلـول مناسـبة وعلميَّـة لتلـك المشـكلة

1- قلاميـن صبـاح، فلسـفة العلـوم الإنسـانِيَّة مـن التفسـير الآلـيّ إلـى نظريَّـة التَّعقيـد، مصـدر سـابق، ص 274-273.

إلى الحدِّ الَّذِي دفع بعضهم إلى تبنِّي بعض مناهج العلوم الطَّبِيعِيَّة. ويمكن أن نحصي العديد من الآراء في المناهج المُتَّبعة في العلوم الإنسانِيَّة من أجْلِ الوُصُول إلى معرفةٍ صحيحة؛ فهناك من تبنَّى منهج القياس الاستنباطيّ الأرسطيّ، وآخرون المنهج الاستقرائيّ وهما في الأعمِّ الأغلب استُخدِما مقابل المنهج الدِّينيّ الَّذِي ساد في أوروبا إبَّان القرون الوسطى. والفرق بينهما أنَّ المنهج الاستقرائيّ يبدأ من الملاحظةِ التَّجريبيَّة مع إضعاف دور العقل، وبالاستناد منطقيًّا إلى مبدأ العلّيّة بِوصْفِهِ تسويغًا للتَّعاقب في المشاهدات، مع ما تستلزمه العلّيّة من نتائج حتميَّة وقواعد كلِّيَّة؛ لأنَّ العلّيّة هي الوجه الآخر للحتميَّة. والنتائج الكُلِّيَّة المستخلصة من هذا المنهج تنطلق من الجزئيَّات لتصل إلى الكُلِّيَّات. أمَّا المنهج الاستنباطيّ الأرسطيّ فهو منهج استنباط القضايا الجزئيَّة من المقدِّمات الكلِّيَّة، وهو نوع من الاستدلال الهابط من الكلِّيَّات إلى الجزئيَّات، مُتمحورًا بشكلٍ كبيرٍ حول التَّنظير بعيدًا عن التَّجربة والاختبار الميدانيّ والحسِّيِّ. ولهذا السبب، طُرح المنهج الاستقرائيّ بِوصْفِهِ ردَّ فعل معاكس للمنهج الاستنباطيّ الأرسطيّ. وقد تبنَّى عدّة من الباحثين[1] المنهج الاستقرائيّ بِوصْفِهِ منهجًا ثابتًا للعلوم الإنسانِيَّة، وإن كان هناك[2]من يجادلُ في صحَّة المنهج الاستقرائيّ أيضًا ويُبيِّن مثالبه بشكلٍ علميٍّ بِكونِهِ لا مُسوّغ عقليّ لتعميم الحكم على وقائع لم تُلاحظ، ولا يوجد أيّ دليلٍ منطقيّ على صحّة ذلك التَّعميم. ومِنْ ثَمَّ، العلم عندهم نشاط إنسانيٌّ نام باستمرار ولا قواعد ثابتة ونهائيَّة فيه.

إضافةً إلى ذينِكَ المنهجين، هناك من يعتقد أنَّ العالم لا يلاحظ فحسب؛ لأنَّ الملاحظة منتقاة دائمًا وتواجهها مشكلة مختارة، أو وجهة نظر نريد أن نختبرها من خلال تلك الملاحظة. فبناءً لذلك المنهج المشكلة هي ما يبدأ بها العالِم وليس الملاحظة الخالصة كما يدَّعي الاستقرائيُّون. فالعالِم يحتاج مسبقًا إلى نظريَّة يلاحظ على أساسها؛ بحيث يبدأ من حصيلةٍ معرفيَّةٍ مسبقة تُحدّد له المشكلة، ثمَّ يقوم بافتراضِ الفرضيَّات المناسبة لها، وهنا تحديدًا يلجأ إلى الملاحظة ليختبر فرضيّته من خلال التَّجربة والاستنباط. تلك هي الصُّورة العامَّة لمسار البحث التَّجريبيِّ للمنهج الفرضيِّ الاستنباطيّ[3]. وعليه، فالمنهج عندهم مُتأسّس على فرضيَّة

1- جون ستيوارت ميل.

2- ديفيد هيوم وبوبر.

3- يمنى الخولي، مشكلة العلوم الإنسانِيَّة تقنينها وإمكانيَّة حلّها، مصدر سابق، ص106.

ما يستنبط منها نتائج محدَّدة، ثُمَّ يُصارُ إلى اختبارها وتجربتها، وليس على الملاحظة، وخصوصًا أنّ هناك العديد من الظَّواهِر العِلْمِيَّة الَّتِي يستحيلُ اعتماد الملاحظة معها، كما في علم الفيزياء عند محاولة مراقبة مسارات الإلكترون داخل الذّرَّة مثلًا. والمنهج الفرضيّ الاستنباطيّ هو مركّب جدليّ بين منهج الاستنباط العقليّ ومنهج الاستقراء، حيث يبدأ الباحث بإشكاليَّة ما يفرض العقل لها حلولًا، ثمَّ يقوم باستنباط النَّتائج من خلال التَّجربة والاختبار الحسّيّ والعقليّ، وليس فقط الحسّيّ، خصوصًا عند تعذُّر إجراء الاختبارات الحسِّيَّة إمَّا لعوائق خارجيَّة، أو لأنّها باهظة التَّكاليف. فيحتكمُ العلماءُ في تلك الحالة إلى العقل وتجاربه، وافتراض نتائجه المتوقّعة. وباعتقاد تلك الفئة من العلماء أنَّ المنهج الفرضيّ الاستنباطيّ هو المنهج التَّجريبيّ في العلوم الطَّبِيعِيَّة والعلوم الإنسانِيَّة على حدٍّ سواء.

هناك وجهة نظر تعتقدُ بأنّ العلوم الطَّبِيعِيَّة من الرياضيّات بمنهجها الاستنباطيّ وعلوم الأحياء والفيزياء بمنهجها الاستقرائيّ لا يمكن أن تكون منهجًا للعلوم الإنسانِيَّة؛ «لأنَّ الإنسان محور دارسة العلوم الإنسانِيَّة ليس عددًا، أو شكلًا ممّا تدرسه علوم الرياضية، كما أنّه ليس مادّة من مواد عوالم الطَّبيعة. إنَّه روح بالأصالة، روح لا تقبل الكمّ، أو القياس، ولا تخضع للملاحظة، أو التَّجْريب»[1]. وباعتقاد أصحاب هذا الرأي أنَّ أزمة العلوم الإنسانِيَّة بدأت عندما حاول العلماء ردّ الرُّوح إلى المادَّة، وجعل الإنسان ظاهرة عدديَّة، أو مادِّيَّة؛ لأنَّ الأصالة في الإنسان هي الرُّوح، وللرُّوح خصائص خاصَّة بها تتفرَّد بها وتتميَّز عن بقيَّةِ الظَّواهِرِ الوجوديَّة. ومِنْ ثَمَّ، المنهج المُتَّبع في فهم تلك الظاهرة لا بُدَّ أن يتناسب مع تكوين تلك الظاهرة وبِنْيَتِها المُسمَّاة بالـ «إنسان». ولكن أتباع ذلك الرأي بدل أن يذهبوا إلى المنهج الميتافيزيقيّ، أو الدِّينيّ لفهم الإنسان لكون الإنسان ظاهرة ليست مرتبطة بالأرض فقط، ولا يمكنُ أنْ تدرك بالاعتماد على الخصائصِ الأرضيَّة للفهم والاستنباط؛ اختار أتباع تلك الرُّؤية العِلْمِيَّة (المدرسة الألمانيَّة تحديدًا) الَّتِي ترى أصالة الرُّوح في الإنسان، وأنَّ الفهم هو محور الأساس في منهج العلوم الإنسانِيَّة، منهجًا في مقابل المنهج التَّجريبيّ أطلقوا عليه اسم «المنهج الكيفيّ». «ويُعدُّ الفيلسوف الدانماركيّ سورين كيركجارد الرَّائد الأوَّل للمنهجِ الجديد في العلوم

1- يوسف زيدان، وآخرون، قضايا العلوم الإنسانِيَّة؛ إشكاليَّة المنهج، الهيئة العامَّة لقصور الثَّقافة، القاهرة، ص17.

الإنسانيَّة، فقد طالب بضرورة دراسة الإنسان وفق مصطلحات «علم الروح» لا علوم الطَّبيعة. ورأى ضرورة وجود منهج يفيدُ في دراسة الروح والباطن دراسةً كيفيَّةً خالصةً. ولقد ذهب المُفكِّر المثالي المحدِّث دلتاي إلى أنَّه من المحال تطبيق مناهج العلوم الطَّبيعيَّة على علوم الإنسان، فالعلوم الطَّبيعيَّة تعالجُ وقائع facts حسِّيَّة؛ بينما تعالج العلوم الإنسانيَّة معاني meanings باطنيَّة. وبينما تعتمدُ العلوم الطَّبيعيَّة على التَّفسير explanation تعتمدُ علوم الإنسان على الفهم understanding»[1]. والمرادُ بالفهم بِوصْفِهِ أداةً معرفيَّةً في المنهج الكيفيّ؛ ذلك الفهمُ الَّذي يقتنصُ المعنى، أو الفكرة، أو العاطفة الَّتي تقف وراء التَّعبيرات، ويحاول معرفة المشاعر، والنَّوايا، والمقاصد، والرَّغبات، والأفكار عن طريق النَّفاذ إليها من خلال الكلمات، أو التَّعبيرات، أو السِّياقات. فالفهمُ عندهم هو عمليَّة معرفيَّة يُرادُ من خلالها استيعاب المحتويات العقليَّة الكامنة في كلِّ تعبير[2]. فقد بيَّنت دراسات عدَّة أنَّه لا تعادل بين اللَّفظ ومحتواه العقليّ، فالفارق كبيرٌ جدًّا بين الاتِّجاه اللَّفظيّ والاتِّجاه الفعليّ، فقد يفعلُ الإنسان ما لا يقوله، وبالعكس. فاللُّغة ليست دائمًا خير تعبيرٍ عن الفكرة، فهناك عبارات قد تؤدِّي إلى إخفاءِ حقيقة الفكرة، أو المشاعر، والعواطف الحقيقيَّة. و«مسألة الفهم ليست بهذه البساطة؛ إذ إنّها تتطلَّبُ مهارات وقُدرات خاصَّة تُمَكِّنُ صاحبها من الفهم الحقيقيِّ الصَّادق لأفكار النَّاس وعواطفهم ومشاعرهم»[3]. فالمنهج الكيفيّ القائمَ على الفهم يغوص إلى الباطن؛ كي يقتنص المعاني والأفكار، ويثير الموضوعات، ويعالج الإشكاليَّات.

أردنا من هذا العرض الموجز لبعض المناهج المُتَّبعة في العلوم الإنسانيَّة خصوصًا المنهج الكيفيّ أن نُشير إلى عدم وحدة تلك المناهج وتنوُّعها إلى حدِّ التَّعَارُض الكلِّيّ أحيانًا، وإلى ضرورة وضع منهج «علم الرُّوح» بِوصْفِه منهجًا دراسيًّا علميًّا بحتيًّا يمكنُ أن يكون بابًا آخر من أبواب المعرفة الإنسانيَّة الَّتي يمكن أن تُسهم في فَهْم الإنسانِ على نَحْوٍ أفضل بعيدًا عن الذَّاتيَّة والشَّخْصانيَّة الإنسانيَّة، ولكن ليس بالضَّرُورةِ بعيدًا عن الأيديولوجيا، والرُّؤية الكونيَّة الدِّينيَّة، كما يرى بعضهم.

1- يوسف زيدان، وآخرون، قضايا العلوم الإنسانِيَّة؛ إشكاليَّة المنهج، مصدر سابق، ص26.

2- المصدر نفسه، ص 22.

3- المصدر نفسه، ص19.

علم الإنسان الدِّينيّ

يجـادل بعـض الباحثيـن بـأنَّ للأيديولوجيـا دورًا سـلبيًّا فـي عمليَّـة بنـاء المنهـج الصَّحيـح والسَّـليم فـي العلـوم الإنسـانِيَّة، لمـا تتضمّنـه مـن قيـم وأفـكارٍ ورؤى مسـبقة، وبمـا تشـتملُ عليـه مـن تَحَيّـزٍ على مسـتوى المشـاعر والأحاسـيسِ والرّغبات، ومـا يمكنُ أنْ تكتنفـه تلـك الأيديولوجيَّـات مـن أفـكارٍ مُسـبقة قـد تـؤدِّي فـي كثيـر مـن الأحيـان إلـى عـدم اسـتقلاليَّة الباحـث فـي دارسـتِه للظَّواهـر الإنسـانِيَّة. فباعتقادهـم أنَّ النّزعَـةَ الذَّاتيَّـة للباحـث والتَّجـارب الشـخصيَّة المشـفوعة بالخلفيَّـة الفكريَّـة العقديَّـة والدِّينيَّـة غالبًـا مـا تـؤدِّي إلى مشـكلة في النَّتائـج على مسـتوى العلـوم الإنسـانِيَّة. مِـنْ هُنَـا، بـدأ التَّنظيـر لمسـألة الموضوعيّـة فـي العلـوم الإنسـانِيَّة، والَّتِـي هي على طرف نقيض بحسب زعمهـم للذَّاتيَّـة. فعندهـم «الذَّاتيَّـة تقضـي باتّبـاع ميولنـا وأهوائنـا، ومواقفنـا الشَّـخصيَّة ورغباتنـا الفرديَّـة، وأحـكام القيمـة تسـلبنا حيادنـا الأخلاقـيّ والقيمـيّ، والأيديولوجيـا تدفعنـا إلـى الانحيـاز لعقيـدةٍ فكريَّـةٍ والتَّعصُّـب لهـا، وصبـغ الوقائـع بصبغـةٍ مُعيَّنـة. أمَّـا كلمـة «الموضوعيَّـة» فهـي تُشـير إلى الالتـزام بالموضـوع مثـار النَّظَـر، وتتناولـه بالبحـثِ والدِّراسـةِ بعيـدًا عـن تطلّعاتنَـا وتَحَيُّزاتِنـا وآرائنـا المسـبقة ورغباتنـا. ومِـنْ ثَـمَّ، فهـي تـرادف «الحيـاد» وتقابـل الذَّاتيَّـة، وتعبّـر عـن القـدرة على اسـتبعادِ المشـاعرِ والعواطفِ عنـد تنـاول الوقائـع وتفسـيرها، وعـدم إصـدار أحـكام أخلاقيَّـة، أو قيميَّـة بشـأنها»[1].

بنـاءً لهـذا الـرأي، تصبـح الأيديولوجيـا إحـدى المُسـبِّبات الأساسـيَّة لمشـكلة العلـوم الإنسـانِيَّة، إلـى الحـدِّ الَّـذِي يمكـن أنْ تصـلَ فيـه إلـى مسـتوى الصِّـراع مـع القـوَّة الهائلـة لضغـوطِ تلـك الأيديولوجيـا وتأثيراتهـا وتحيّزاتهـا. والحـلّ عندهـم يكمـنُ فـي الفصـلِ والتَّمييـز بيـن مـا هـو علمـيّ، ومـا هـو غيـر علمـيّ مرتبـط بالأيديولوجيـا والفلسـفة؛ بحيـث يُصَـارُ إلـى صياغَـةِ قضايـا العلـوم الإنسـانيَّة مـن دون أن تكـون معتمـدة علـى مقاييسـهما وقواعدهمـا[2]. وتلـك ـ بطبيعـةِ الحـال ـ دعـوةٌ واضحـةٌ وصريحـةٌ إلى فَصْـلِ العلـوم الإنسـانِيَّة عـن الدِّيـن مع مـا يتضمّنـه مـن رؤيـةٍ كونيَّـة.

قبـل عـرض المسـألة للنِّقـاش؛ السُّـؤال الأسـاس الَّـذِي يطـرح نفسـه هـو؛ مـن أيـن يفتـرضُ أن نبـدأ إذا مـا أردنـا أن نخطـو خطـوات منهجيَّـة سـليمة وصحيحـة عنـد دراسـة الظَّاهـرة الإنسـانِيَّة، بعـد كُلّ ذلـك التّنـوُّع والتَّعـدُّد فـي الآراء والمناهـج، ومـن

1- يوسف زيدان، وآخرون، قضايا العلوم الإنسانِيَّة؛ إشكاليَّة المنهج، مصدر سابق، ص 34.

2- يمنى الخولي، مشكلة العلوم الإنسانِيَّة تقنينها وإمكانيّة حلّها، مصدر سابق، ص79-78.

أجل الوصولِ إلى حلٍّ نهائيٍّ يمكن أنْ يُشكِّلَ منهجًا جامعًا بين الآراء على نَحْوٍ موضوعيٍّ، جاد على مستوى الحلول العِلْمِيَّة، وعميق على مستوى الأبعاد المعرفيَّة، وسليم على مستوى النَّتائج والتَّطَلُّعات الَّتي تنسجم مع البناءِ الإنسانيِّ السَّوي؟

يمكن أنْ تكون مسألة الرُّؤية الدِّينيَّة الصَّحيحة غير مقبولة من النَّاحيةِ العِلْمِيَّة عند بعض العلماء لأسبابٍ عدَّة، منها تاريخيَّة، وأخرى عقديّة، وربما شخصيَّة. ولكن عدم الموافقة على الطَّرح وفق الرُّؤية الدينيَّة ـ الإسلاميَّة على نحو التَّحديد ـ لا يلغي علميَّة الطَّرح واحتماليَّة جدوائيَّته على مستوى النَّتائج؛ لأنَّ تقديم الحلول من منظورٍ علميٍّ دينيٍّ (إسلاميٍّ) تبقى ـ في نهاية المطاف ـ رؤية من ضمن تلك الرُّؤى العِلْمِيَّة المطروحة للتَّداوُلِ والنِّقاش، خصوصًا إذا ما احتملنا جدوائيَّة ذلك الطَّرح وإصابته للواقع على المستوى الفلسفيّ خصوصًا، لما يُقدِّمه ذلك المنهج من طرحٍ جديدٍ وعميقٍ في الفهم والتَّفسير. فالأخلاق البحثيَّة والموضوعيَّة العِلْمِيَّة تقتضي منَّا أنْ نتعامل مع الطّروحَات الأخرى بِوصْفِها فرضيَّات علميَّة تستحقُّ التَّأمُّل والدّراسة، على الرّغم ممَّا نحمله من آراء واجتهادات فكريَّة وعلميَّة مسبقة. فكما أنَّ الباحِثَ الإسلاميّ عليه أن يقرأ النّظَريَّات العِلْمِيَّة الغربيَّة قراءةً مُتأنّية محاولًا البحث في ثناياها عن نقاطِ الصّحَّة والخطأ بموضوعيَّة، على الباحث غير الإسلاميّ أيضًا أن ينظرَ بالطريقة نفسها، وللأغراض والأهداف نفسهما.

إنَّ نقطةَ الانعطاف الكبرى في الرُّؤية الدِّينيَّة (الإسلاميَّة) هي الإنسان نفسه؛ لأنَّها رؤية مبنيَّة على قاعدةٍ مفادها أنَّ المعرفةَ بالحقائق الخارجيَّة مُتوقّفة أوّلًا على المعرفة بحقيقةِ الإنسانِ نفسه. وحقيقة الإنسان ـ بحسب الرُّؤية الدّينيَّة ـ غير مُتاحة من خلال المنهجيَّة المعرفيَّة الإنسانيَّة المحضة الَّتي تُؤلِّه قدرات الإنسان، وتجعله مُعتمدًا على ذاته دومًا في العلم والفهم؛ لأنَّ النَّظريَّة المعرفيَّة الدِّينيَّة تعتقدُ أنَّ هناك جزءًا من المعرفة لا يمكنُ أنْ يحصلَ بالطُّرُقِ البشريَّة الاعتياديَّة، والسَّبب في ذلك يرجعُ إلى تركيب الإنسان نفسه؛ لأنَّ الإنسان ـ وفق النَّظَريَّة الدِّينيَّة ـ كائنٌ روحيٌّ ومادِّيٌّ وليس فقط كائن مادِّيّ. وهذا يعني أنَّنا بحاجةٍ إلى منهجٍ علميٍّ آخر يمكننا من كشف أسرار تلك الرُّوحِ الإنسانيَّة وأبعادها بشكلٍ جليٍّ، لما لِتلك المعرفة من آثار مُهمَّة وضروريَّة في تشكُّل الوعي الإنسانيّ الصَّحيح بنفسه وبالمحيط من حوله.

لذا، نعتقد أنَّ البداية لا بُدَّ أنْ تكون من «علم الإنسان»، هذا الإنسان الَّذي كان مطبوعًا في الشَّرق «بطابعٍ دينيٍّ، وعلى ذلك، فقد ظهرت قراءات عن جوهَرِ

الإنسان وبدايته ونهايته ومكانته في نظام الكون، تنوَّعت وتعدَّدت بتعدُّدِ الدِّيانات هناك. وجاءت الأديان السَّماويَّة: الإسلامَ واليهوديَّة والمسيحيَّة، من جهة، وديانات مثل: البوذيَّة، والبرهميَّة، والهندوسيَّة، والجينيَّة، من جهة أخرى؛ بتفاسير وقراءات تستند إلى رؤيتها الخاصَّة عن الإنسانِ ومصيرِه ومُستقبلِه. ومن هنا، ينبثق التَّنوُّع في معرفة الإنسان في الشَّرق عن تنوُّع الأديانِ وتعدُّدها، وليس عن تعدُّدِ المصادرِ والمنهجيَّات. خلافًا للغرب، حيث تتفرَّع معرفة الإنسان تاريخيًّا إلى ثلاثة فروع، هي: علم الإنسان الفلسفيّ، والدّينيّ، والتَّجريبيّ»[1]. فللغرب رؤيته الخاصَّة عن الإنسان وما انبثق عنها من علوم، وللدين وفق الرؤية الإسلاميَّة أيضًا رؤيته الخاصَّة عن الإنسان، والَّتِي لا يمكن المرور عليها مرور الكرام مع ما يمكن أن ينبثق عنها من نظريَّاتٍ ورؤًى علميَّة جديدة. والدَّعوى هنا ليست لإلغاء المنهج الغربيِّ؛ بل يفترض الأخذ بأسبابِ القوَّة ونقاطِها الموجودة في ذلك الطَّرْح الفكريّ أيضًا.

الفكرةُ، باختصار، هي محاولة طرح مسألة «معرفة الإنسان»، والَّتِي هي مُقدِّمة حتميَّة وضروريَّة للعُلُوم المرتبطةِ بهذا الإنسان، من مَنْظُورٍ دينيٍّ فلسفيٍّ إسلاميٍّ، لما يختزنُه ذلك الدِّين منَ نَظْرةٍ فلسفيَّةٍ عميقةٍ إلى الإنسانِ يمكن إذا ما تضافرت مع الجانبِ التَّجريبيّ أن تحدثَ تقدُّمًا مُهمًّا في مجالِ العُلُوم الإنسانيَّة المعاصرة. ولا حاجة إلى المغالاةِ في الدِّفاعِ عن المنهج الغربيِّ في مُقَارَبَةِ العُلُوم الإنسانِيَّةِ بعدما أقرَّ الغرب نفسه بانسدادِ الأُفقِ أمامه في فَهْم الإنسانِ فهمًا حقيقيًّا ودقيقًا، وما تلا ذلك من نظريَّاتٍ تعارضت مع الكثير من المَبادئِ الإنسانِيَّةِ الأوَّليَّة المُتَّصلة بتكوينِهِ الفطريِّ وطبيعتِه الإنسانِيَّة الأصيلة. فها هو مكس شيلر Max Scheler من العلماءِ والمُفكرين الغربيِّينِ الأوائل الَّذين حذَّروا من أزمةٍ تعصفُ بعلم الإنسانِ الحديث في الغرب. كما يؤكِّد إرنست كاسيرر Ernest cassirer نتائجَ رؤية ماكس شيلر بشأنِ الأزمةِ الَّتِي يُعانيها علم الإنسان الحديث، وأنَّ الاضطراب والفوضى في تلك الرُّؤى والأفكار هما اللَّذان يؤدِّيان إلى التَّأزُّم في ذلك العلم بالذَّات؛ بسبب عدم وجود مرجعيَّة مُحدّدة ووجهة عامَّة لتوجيهِ الأفكار، وإنارة طريقها نحو معرفةٍ صحيحةٍ تحدِّد كيفيَّة البحث في الوجودِ الإنسانيِّ، وتُؤطِّر المُعْطَيات بإطارٍ علميٍّ صحيح. وكما أسلفنا «يعودُ السَّببُ في عدمِ التَّوصُّل إلى معرفةٍ مُتكاملةٍ ودقيقةٍ

1- أحمد واعظي، الإنسان من منظور الإسلام، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، 2016م، ص14.

في ظلِّ تلك الكمِّيَّة الهائلةِ من الموادِّ والمعطياتِ في الأساس إلى الخلافاتِ الجوهريَّةِ بين المناهج الَّتي تعصفُ بمختلفِ الاتّجاهاتِ المُرتَبِطةِ بمعرفةِ الإنسان. وتعيقُ مثل تلك الخلَافات الجوهريَّة التَّوصُّل إلى استنتاجٍ واضِحٍ وصَريحٍ بالنِّسْبةِ إلى القضايا المُتعلِّقة بأيِّ فرعٍ من فُرُوعِ تلك العُلُوم»[1].

يمكننا أن نقسم المناهج المُتّبعة في معرفةِ الإنسان بشكلٍ عامٍّ إلى منهجين أساسِيَّيْن؛ المنهج الحسِّيّ المادِّيّ، والمنهج الرُّوحيّ الدِّينيّ. وبما أنَّ العلومَ الإنسانِيَّة في الغرب قد تأسَّست على قواعدِ القسم الأوَّل ومرتكزاته، ووصلت إلى ما وصلت إليه من طريقٍ مسدودٍ أمام فهم الإنسان، كان لا بُدَّ مِنْ خوضِ مرحلة البحث والنِّقاش في المنهج الرُّوحيّ الدِّينيّ لفهم الإنسان. ومِنْ ثَمَّ، البحث في طيَّاتِ منهج آخر يُمْكِنُ أنْ نُطْلِقَ عليه اسم «علم الإنسان الدِّينيّ»؛ لأنَّه، على ما يبدو، لا إمكانيَّة لتقليصِ حجم الفوارقِ والخلافات القائمة بين العلوم الإنسانِيَّة، وعلم الإنسان ومعرفته من دون الاستعانة بالاتِّجاهِ المعرفيِّ الدِّينيِّ ـ الفَلسفيّ في نظرتِهِ إلى الإنسانِ ورؤيَتِه. ومِنْ ثَمَّ، هي دعوةٌ إلى معرفةِ الإنسانِ من منظارِ «علم الإنسان الفلسفيّ»، بحسب ما طرح الفلاسفة الإسلاميُّون خصوصًا مدرسة الحكمة المُتَعَالية، ومدرسة العرفاء.

ففي بحثنا عن الإنسان هناك أسئلةٌ أساسيَّةٌ تُطرحُ لا بُدَّ مِن الإجابة عنها. الإنسان مثلًا كائن مادِّيّ، أو روحانيّ؟ وهل الطَّبيعِيَّة الإنسانِيَّة مشتركة؛ بمعنى أنَّه يوجد قواسم مشتركة أساسيَّة يتّفقُ فيها البشر تكوينًا، أو أنَّنا أمام كائناتٍ لا تتوافقُ في أبعادها الذَّاتيَّة؛ بل تشترك بالاسم فقط؟ وهل توجُّهات الإنسان ورغباته هي أمور مُكتسبة مُتأثّرة بالبيئةِ والتَّربية، أم أنّها توجُّهات عميقة نابعة من أعماقِ وجودِهِ ومُتَأصِّلة في تكوينِه الإنسانيِّ الذّاتيِّ؟ السُّؤال الأساس والمحوريّ الَّذي يطرحُ أيضًا في علوم الإنسان مُتَعلِّق بمسألةِ الكمالِ الإنسانيِّ، فما كمال الإنسان؟ وما مواصفاته؟ وما معاييره؟ وما المنهجُ الصَّحيح المُتَّبع لبلوغ الكمال الإنسانيِّ الواقعيِّ؟

هذه الأسئلة المصيريَّة وغيرها لا يمكنُ للعقلِ البشريِّ أن يقبلَ بفكرةِ الاعتماد على منهجٍ أُحَاديّ حِسِّيّ تجريبيّ في الإجابة عنها مع ما فيها من عُيُوبٍ ونقائص مع احتمالِ وجود أبواب أخرى للعلمِ والمعرفة يمكنُ أن تكون منفسحًا حقيقيًّا

1- أحمد واعظي، الإنسان من منظور الإسلام، مصدر سابق، ص19.

يجيبنا عن هذه الإشكاليّات المعرفيّة الإنسانيّة العميقة. والرُّؤية الدِّينيّة الإسلاميّة لديها طرح خاص ينبغي التَّوقُّف عنده وقراءته بِتَأنٍّ وتدبُّرٍ ودقّةٍ مُتناهِيَةٍ لما يُمكنُ أنْ يُقدِّمَه هذا الطَّرح من حلولٍ حقيقيَّةٍ لأزمةِ معرفةِ الإنسان، وما يتفرّعُ عنه مِنْ علوم إنسانيَّةٍ. خصوصًا إذا ما أدركنا أنَّ الفلسفةَ الإسلاميَّة بشقّها العرفانيّ خصوصًا والأبحاث القرآنيَّة المُعمَّقة لديها منظومة كاملة، وغاية في العُمْقِ عند مقاربَتِها لموضوعات معرفة الإنسان؛ لأنَّها علوم أُسِّسَت على ثلاثةِ محاور رئيسة، هي: معرفة إله العالم، ومعرفة العالم، ومعرفة الإنسان. فالإنسانُ بناءً لتلك الرُّؤية يُشكّل محورًا رئيسًا وضروريًّا في بناءِ ذلك المنهج المعرفيّ، وهو يُشكّل مع بقيَّة المحاور منظومةً مُترابطةً من أجلِ تأمين معرفة أتمّ، ورؤية أفضل للظَّاهِرَةِ الإنْسانِيَّة.

المنهج الجمعيّ في معرفة الإنسان

إذا أردنا أن نفصّل أكثر في المناهج المُتَّبعة في معرفة الإنسان بوصفها مُقدِّمةً من أجْلِ استخلاصِ المنهج الأتمّ والأصح، يمكن أن نقسّمها إلى أربعة مناهج أساسيّة، هي:

1. المشاهدة والتَّجربة.
2. الاستبطان النفسيّ(التَّبصُّر الذَّاتيّ).
3. القراءة التَّاريخيَّة.
4. المنهج العقليّ الدِّينيّ.

المنهج التَّجريبيّ على الرّغم ممَّا يمكن أن يتوصَّلَ إليه من معلومات قيِّمة بفعلِ التَّجربةِ والمُشَاهدة، لكن ذلك لا يعني إمكانيَّة الإحاطة بِحَقيقةِ الإنسان. ومِنْ ثَمَّ، الكشف عن كلِّ خصائِصِه وقابليَّاتِه؛ «إذ هناك الكثير من الأبعادِ الحقيقيَّة في الإنسان، تعجزُ التَّجربةُ والمناهجُ التَّجريبيَّة عن سَبْرِ أغْوارِها والكشفِ عن خفاياها. فالحياةُ الباطنيَّةُ للإنسان وتوجُّهاته العاطفيَّة والنَّفسيَّة العميقة لا تخضعُ للتَّجربةِ والاختبار»[1]. أمَّا منهج الاستبطان، أو التَّبصُّر الذَّاتيّ فيمكن أنْ يُوصِلَنا إلى المعرفةِ الباطنيَّةِ للإنسانِ من خلالِ الإشراقِ والشُّهود الباطنيّ؛ بحيث يصبحُ لدينا فهم للإنسان عن طريقِ السُّلوكِ الباطنيِّ والوجدانيِّ. ولكن مع هذا المنهج أيضًا لن نكون قادرين على معرفةِ طبيعةِ الإنسانِ بشكلٍ كاملٍ؛ لأنَّ «منهج الاستبطان

1- أحمد واعظي، الإنسان من منظور الإسلام، مصدر سابق، ص89.

يقتصرُ على ذلك الجزءِ البسيط من الحياةِ الإنسانيَّة الَّذي نستطيعُ إدراكه عبر التَّجربةِ الفرديَّة، لكنَّه لن يكون قادرًا على أنْ يُحيطَ بكلِّ الأوجه المختلفة للأبعادِ الإنسانيَّةِ»[1]. أمَّا المنهجُ التَّاريخيّ الَّذي يسعى إلى الكشفِ عن القواسِم المشتركة بين البشر من خلال التَّأمُّل في التَّاريخ وتعميم نتائج الدِّراسات، فهو غير قادر أيضًا على تقديم منهجٍ شاملٍ وكاملٍ يخاطبُ كلّ الأبعاد الإنسانيَّة لكونِه دراسةً مُنفصلةً عن تركيبِ الإنسانِ التَّكوينيّ والوجوديّ، فهو يدرسُ الظَّواهر التَّاريخيَّة للإنسانِ ببُعْدِهِ الخارجيّ فقط، ويحاولُ استخلاص النَّتائج، وبناء القواعد الكُلِّيَّة على أساسها من دونِ الدُّخولِ في البناءِ الفرديِّ للإنسان وصناعَتِه الوجوديَّة. ومِنْ ثَمَّ، «تشكو كلّ تلك المناهج الثَّلاثة من عدم القُدرةِ على تقديم نَظْرةٍ شاملةٍ مُتكاملةٍ عن الإنسانِ، كما أنَّها تستندُ في رؤيتها إلَى الظَّنِّ وعدم اليَقين، وما تنتجهُ تلك المناهج من معارف تعتمدُ على الاستقراءِ النَّاقِصِ والتَّعميم الاستقرائيّ الَّذي تشوبه الظُّنون»[2].

وعليه، يبقى لدينا فرض علميّ مُتَعلّق بالخيار الأخير، فهو من ضمن المناهج المُتاحةِ الَّتي حاولت تقديم منظومة معرفيَّة في معرفةِ الإنسانِ من خلالِ الاستعانَة بالعَقْلِ والنَّقلِ معًا؛ أي المنهج العقليّ، والمنهج الدِّينيّ المُتأسّس على الكتاب الإلهيّ، وسُنَّة المعصومين الصَّحيحة. وذلك ـ بطبيعة الحال ـ يستلزمُ دراسات مُعَمَّقة في المنهجِ الدِّينيّ؛ بغية استنباط الرُّؤية الخاصَّة بالإنسانِ واستكشافها بحسب ما ورد في نتائجِ الوحي الإلهيّ ومخرجاته (القرآن الكريم بالدَّرجَةِ الأولى) وما تفرَّع عنه من أحاديث مُفسِّرة وشارحة، والسَّالكة على ذلك الطريق الوحيانيّ نفسه. فالمعرفةُ الدِّينيَّةُ، بطبيعةِ الحالِ، هي معرفة وحيانيَّة تتبع المنهج الوحيانيّ الَّذي يُفعّل كل أدوات المعرفة في الإنسان من خلالِ البحث عن الجوانبِ المخفيَّة في قدراته العِلْمِيَّة والَّتي تتجاوزُ حدود الحسّ؛ لتكشف عن نقابٍ مخفيٍّ في العقلِ وما بعد العقل من القلب والرُّوح والسِّرّ. وهي أدوات للمعرفة يستحقُّ الشَّغف والاستكشاف العلميّين الصادقين أنْ نقف عند حدودها لما يمكن أن تفتحه لنا من أبواب كانت موصدة أمام العقل البشريّ لاقتصاره طَوال الوقت على المنهج التَّجريبيّ المحض، أو المنهج العقليّ المحض، مع إلغاء أيّ دور للمنهج الدِّينيِّ الصّحيح بحجج غير منطقيَّة. خصوصًا عندما نكتشفُ أنَّ المناهج الأخرى الَّتي حاربت الدِّين هي نفسها

1- أحمد واعظي، الإنسان من منظور الإسلام، مصدر سابق، ص90.

2- المصدر نفسه، ص89.

قد استبدلت مبدأ إله العالم، بتَأْلِيهِ الإنسان، وصنعت دينًا جديدًا اسمه «الدِّين الإنسانيّ». فالمناهج غير السَّماويَّة- الوحيانيَّة لم تخرج في الحقيقة من عباءة الألوهيَّة؛ وإنَّما تلبَّست الألوهيَّة لديها بلباس الأنسنة، وأصبحت العلوم الإنسانيَّة بشقَّيها: الإنسانيّ، والطَّبيعيّ هي الدِّين بعينه، والإنسان هو إله ذلك الدِّين الجديد الَّذي حاول أنْ يُقدِّمَ رؤيته الخاصَّة عن الإنسانِ والطَّبيعةِ وحتَّى الكون!

لو أنَّ تلك المناهج أوصلت أصحابها إلى المبتغى العلميّ في ما يتعلَّقُ بعلوم الإنسانِ ومعرفته، وما يتفرَّعُ عنها من تسخير سليم للطَّبيعة، وسيطرة مُوفَّقة على علومها، لكان بالإمكان إلغاء الاحتمالات الأخرى والفرضيَّات المُتبقِّية. ولكن الطَّريق المسدود الَّذي وصلت إليه تلك العلوم بنتائجها الكارثيَّة على الإنسان والمجتمعات البشريَّة، والَّتي ظهرت بشكلٍ واضحٍ من خلالِ مظاهر الدَّمار البيئيِّ، والفساد الطَّبيعيِّ، والفقر واللَّاعدالة المُجْتَمعيَّة، وما نتج منها من حروبٍ إنسانيَّةٍ مُدمِّرة، وظلم مستشرٍ وفاضح في المجتمع الإنسانيِّ المعاصر، كلّ تلك الأمور تُفضي إلى نتيجةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ هناك خللًا ما واضحًا في بِنْيَة تلك المنظومة المُتَّبعة في فهم الإنسان وتسخير الطَّبِيعيَّة، وما يرتبطُ بهما من علوم.

وبعد الإقرار بالفشل الَّذي وصلت إليه العلوم الطَّبِيعيَّة والإنسانِيَّة في خدمة الإنسان، وتأمين العدالة والسَّعادة الحقيقيَّة له، ومعرفته معرفة واقعيَّة، وفهم ما يصلحه، وما ينسجم مع أهدافه الوجوديَّة والتَّكوينيَّة «يأتي المنهج الدِّينيّ بالاستناد إلى الكتاب والسُّنَّة، عارضًا نفسه بوصفِهِ طريقةً تجدرُ الثِّقة بها في سبيلِ معرفةِ الذَّات الإنسانِيَّة وسَبْرِ أغوارها، حيث تنطوي النُّصُوص الإسلاميَّة على إشاراتٍ إلى حقيقةِ الوُجُودِ الإنسانيّ، لم نجدْها في سائرِ مناهلِ المعرفة، ولا يمكن إيجاد طريق للوصولِ إليها دون الاستنارة بتلك النُّصُوص. إنَّ الوقوف عند تلك الآيات والأحاديث من شأنه أن يساعد، بشكلٍ كبيرٍ، في تقديم معرفة شاملة مُتكاملة عن الطَّبيعة الإنسانِيَّة. وفي الحقيقةِ، مِنَ الصَّعبِ التَّوصُّل إلَى معرفةٍ مُتكاملَةٍ ومُتَعَدِّدةِ الأبعاد عن الطَّبيعة الإنسانِيَّة، دون الاستعانة بمختلف المناهج القائمة؛ إذْ إنَّ المعرفةَ التَّامَّة والمُتكاملة حيال الإنسان لا تأتي عبر منهجٍ مُعيَّن دون المناهج الأخرى. من هنا، فإنَّ نتيجة تلك التَّعَدُّدِيَّة في مناهجِ المعرفةِ في الوصول إلى معرفةِ الذَّاتِ الإنسانِيَّة بصورةٍ أفضل وأكثر تكامُلًا. لا ننس- في الوقت ذاته- أنَّ المُعطيات الَّتي يُقدِّمها كلّ منهج تتفاوتُ من حيث درجة الأهمِّيَّة والقيمة. وعلى هذا لا بُدَّ

مِـنْ إيـلاءِ المزيـد مـن الأهمِّيَّـة للمُعطيـات الَّتِـي تُقدِّمُهـا النُّصُـوص الدِّينيَّـة والمنهـج العقليّ فـي هـذا الصَّـدد، دون أن نغفـل مـا توصَّلت إليـه المناهـج التَّجريبيَّة والاسـتبطانيَّة والتَّاريخيَّـة مـن إنجـازات فـي هـذا السَّـبيل»[1].

هـذا مـا يمكـنُ أنْ نُطْلـقَ عليـه «المنهـج الجمعـيّ الدِّينـيّ» في العلـوم الإنسـانِيَّة، وهو منهـجٌ يحـاولُ أنْ يجمعَ بيـن مجموعـةٍ مـن المناهِـج الَّتِي يمكـن أن تُشـكِّلَ مع بعضهـا بعضًـا منظومـةً مُتكاملـةً تسـاعدُ فـي معرفـة الإنسـان؛ لتكـون تلـك المعرفـة مُقدِّمـة مـن أجْـلِ بنـاءِ منهـجٍ في العلـوم الإنسـانِيَّة أكثـر حداثـةً وتطـوُّرًا وقـدرةً على تلبيـةِ التَّطلُّعـاتِ الإنسـانِيَّةِ والمُجتمعيَّـةِ الَّتِـي يمكـنُ أنْ تصُـبَّ فـي إطـارِ خِدْمـةِ الإنسـان، مـن أجـلِ الوُصُـولِ إلى الهَـدَفِ السَّـامِي للحيـاةِ الإنسـانِيَّة، ودائمًـا تحـت حاكميَّـة الرُّؤيـة الدِّينيَّـة الوحيانيَّـة ومظلّتهـا ـ القرآنيَّـة، والعقـل بقواعـده وأُسُسِـه المنطقيَّـة والبَدَهِيَّـة.

هنـا، سـوف ينفتـح علينـا بـابٌ واسـعٌ لا حـدَّ لآفاقـه العِلْمِيَّـة والمعرفيَّـة بعنـوان «معرفـة الإنسـان في القـرآن الكريـم»، انطلاقًـا مـن أنَّ القـرآن يُخاطـبُ الإنسـان بالدَّرجةِ الأولى، وهـو إنَّمـا نـزل مـن أجلِهِ وبهـدف هدايتِـه، وهـو يعـرف حقيقتـه، ومـا يـدور في نفسـه، وكيـف تكـوّن، ومـا يمكـنُ أن يصيـر إليـه ...كمـا تُلخِّـص ذلـك الآيـة الكريمـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلْإِنسَـٰنُ مَـا غَـرَّكَ بِرَبِّـكَ ٱلْكَرِيـمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَـكَ فَسَـوَّىٰكَ فَعَدَلَـكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُـورَةٍ مَّـا شَـآءَ رَكَّبَـكَ ﴾[2].

1- أحمد واعظي، الإنسان من منظور الإسلام، مصدر سابق، ص91،92.

2- الآيات: 6،7،8، الانفِطار/82.